

الأخجار الجائعة

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندي
بترجم الأديب شكري محمد عياد

تغيير وجهة السفر،
وقصدنا إلى غرفة
الاستراحة قسمنا
باحتمال تأخر القطار
لارتباك أصاب
الخطوط فهيأت
لنفسى فوق النضد
فراشا ، وتأهبت

لأسلم عيني لإغفاءة مريحة . ولكنى لم أجمع تلك الميلة
لغوباً ووصياً ، فقد جاء الرجل يغترل غزله ، ويحيك
خيوط هذه الأقصوصة . .

حينما ألتأتى الخلافات الإدارية إلى اعتزان
منصبى في جنجارا ، ودخلت في خدمة نظام حيدر
آباد — كنت في نخوة شبانى ، وعنفوان قوى ،
فاختارونى جاياً لفرائب القطن في باريس

وباريس بلد جميل ، يعزف السوستا فيه ألحانه
على مجرى حبرى وحصباء مفروشة ، فيمسيها مساً
دقيقاً ، كأنه أقدام راقصة ماهرة مُفْتَنَتُهُ ، ثم يسير
بين الآجام مثلياً مرجحنا . ويرتفع منه سلم درجاته
خمسون ومائة ، يجثم في أعلاه قصر من رخام أقيم
على سفح الهضبة ، وأشرف على شاطئ النهر ،
وأقام في مكانه ذاك منعزلاً وحيداً . . فما كان حوله
موطن لبشر ، بل خلفته منازل القرية فريداً .

فشد مائتين وخمسين عاماً على التقريب أبتنى
السلطان محمود شاه الثانى قصره ذاك ليجمعه آية ترف
وموطن نعيم ، فناء الورد منبجس من نافوراته ،
وغيد الفرس يفرشن رخام الأرض في حجراته ،
وشعورهن للاستحمام مرسله مخلولة ، وأقدامهن
الناعمة عارية مبلولة ، تعبت في الماء ، فتنتطلق
حناجرهن بالغناء ، ويرددن أصوات فارس على
ألحان القيثار . ثم صوح جمال القصر وذهب غزه ،

كنت قافلاً وقريبى من رحلتنا في بوجا عند ما
لقينا الرجل في القطار . ولقد طالعنا من ملبسه
ومسلكه ما جعلنا نراه بادیء الراى مسلماً من أهل
الأقاليم العليا . ثم راعتنا منه جهارة منطق ، وعذوبة
حديث . فقد كان واسع فنون القول ، ومتشعب
أطراف الكلام . وكنا قبل ناعى البال لانعم أن قوى
خفية تعمل ؛ وأن الروس قد أصبحوا منا قَب
قوسين ؛ وأن سياسة الإنجليز تنطوى على أسرار ،
وتدور على عمق ؛ وأن الخلاف بين الزعماء القوميين
قد بلغ منتهاه ، وأشرف على مدها . ولكن صاحبنا
الجديد قال وهو يتسم ابتسامة ماكرة : « إن في
السما والأرض لأحداثاً تجل عما تذكره الصحف » .
وإذ كنا قبل عاكفين على ديارنا لا نفارقها فقد
دهشنا لحديث الرجل ؛ كان يطرق الموضوع السائر
فيخلطه بالعلم ، ثم يعلق على الكتب المقدسة ، ثم
يردد رباعيات لشاعر فارسي . وكان قريبا رجلا
من المتصوفة ، فاعتقد اعتقاداً لا يخالجه شك أن
صاحبنا مزود بقوة مغناطيسية خفية من لدن جرم
في السماء ! فكان إذا سمع نافعاً من القول تسقطه
شفقتا الرجل العجيب ابتسم معدراً ، وألقى السمع
جذلاً . ويخيل إلى أن الرجل لاحظ منه إعجابه ،
فطرب له وارتاح .

وفي الساعة العاشرة مساء بلغنا المحطة حيث يجب

وقد خمد الهواء وهمد فما تحس نفخة ريح ولا نفخة نسيم ، وتحمل برائحة قابضة نفثتها شجيرات توابل تنمو على التل المصائب . وعند ما غابت الشمس وراء التل انسدل على مسرح النهار ستار طويل . وتعجلت التلال المحدقة ظلمة المساء فأجهزت على الشمس ، وابتلعت فترة الغروب حينما يشمّش الليل أضواء النهار . فخطر لي أن أذهب راكباً في زهرة . وبينما أنا موشك على النهوض إذا بوقع خطوات على الدرج ورأي ، فالتفت فلم أجد أحداً ، فمزوت ما سمعت إلى وهم خداع وخيال غرار . وجلست وما كدت أفعل حتى تخيلت جمعاً كبيراً يهبط الدرج ، فأخذتني رجفة من سرور ، وهزة من خوف . ولئن لم تبصر عيناى أحداً فقد خيل إلى أني رأيت سرباً من عذارى كواعب يهبطن الدرج ليستجمعن في السوستا . تلك الأمسية من أمسيات الصيف . وما كنت تسمع في السهل أو النهر أو القصر صوتاً يبدد السكون ، أو نائمة تخفف الرهبة ، ولكن أذني نقلت إلى في وضوح نضحكات العذارى ، مريحة سعيدة . وحينما ذهبن إلى النهر يتطاردن لأعبات كنت أسمع هديرًا كهدير ارتظام ينبوع بجانة شلال . ولكنهن لم ينتبهن لوجودي ولعلهن لم يريني كما قصر عنهن بصرى . وكانت صفحة النهر ساكنة هادئة ، ولكنني شعرت كأنما حركتها أيد كثيرة ، توسوس فيها الأساور ، ويأتلق فيها الذهب . ثم نضحكن فداغن موجاً عاشقاً فما خلاهن إلا موج عاشق . فتقاذفن برشاش الماء فرحات . وضربن الموج بأرجلهن الصغيرة فأنطلق في الهواء جبات من لؤلؤ ، فارتجف قلبي عجباً ، وخيل إلي أني أستطيع بشحذ الحس أن أسمع كل ما يقطن ، فما سمعت إلا زفرقة العصافير في الدغل القريب . وخيل إلي أن سترأ من مائتين وخمسين عاماً قد قام من دوني ، فوددت لو رفعت منه ركناً ،

فلا ماء الورد ينبجس من نافوراته ، ولا الصوت الرخيم يرن في جنباته ، ولا الأقدام البيض تلبس بمرمرى أرضه وحجراته ، صار لجياة الضرائب مستقراً ومقاماً ، وأولئك رجال حرموا دل النساء فهم في وحشة سادرون .

ولقد طالما حذرني الحاج « كريم خان » من أن أتخذ في ذلك القصر مقامى . فقد قال لي : « إن شئت فمض هناك يومك ، ولكن إياك أن تبقى فيه ليلاً ! » فضحكت منه بنفس لاهية وقلب جرى . ورضي الخدم أن يعملوا هناك نهائراً على ألا يبيتوا فيه ليلاً ، فوافقته دون مناقشة . فان للبيت اسماً يمث الرهبة حتى في قلوب المصوص ، فلا يجروون أن يقربوه متى حماه الليل بدرعه

ولقد جثمت على صدرى أول الأمر وحشة القصر المهجور ، فكنت أحب البقاء خارجه ، وأغرق نفسي في العمل أطول مدة أستطيع ؛ فإذا أبت في المساء كنت منهوكة مكدوداً ، فأنطرح على الفراش فتهدج عيني وتنام .

ولكن قبل أن ينقضى على ذلك أسبوع بدأ المكان يربنى من سحره عجيباً ، حتى ليلتأث على الوصف ويمجزني الأمر فما أعرف كيف أستطيع حمل الناس على التصديق . ولكنني شعرت كأنما كان البيت كأنثاً حياً يمتصني دون شعور ، ويخدرني بافراز عجيب من معدته ؛ ولعل البيت بدأ عمله منذ وطئته قدمي أول مرة ، ولكنني أذكر جيداً ذلك اليوم الذي عرفت فيه ما هو بسبيله .

كنّا في بواكير الصيف ، وكانت السوق راكدة فلم يكن لي ما أعمله ؛ وقبيل الغروب كنت جالساً على كرسي مريح على الضفة المساء قرب سلم النهر ، وكان السوستا قد أجفل ، فأنحسر إلى أسفل ، فامتد على الضفة المقابلة كثيب من الرمل يشع بأضواء المساء . والحصباء تحت المياه الضحلة براقة ملتزمة ،

ولما ثَضاً المصاييح . فما كدت أدفع الباب حتى
ابتدروني لجب وضوضاء ، كأن أقواماً يتدافعون
مسرعين ، ويهرعون إلى الأبواب والنوافذ والدهاليز
والشرفات والحجر ، ويستبقون إليها هارين ...
ولكني لم أر أحداً ، فوقفت مأخوذاً لللب مشدوهاً .
وقد قف شعراً رأسي من نشوة مجنونة ، وسطعت في
أنقي رائحة العطور والأدهان وقفت في ذلك البهو
العريض المنزول ، والظلام يكفني ، وصفوف الأعمدة
القديمة تحديق . فتبينت صوت نافورات تسفع بأمها
رخام الأرض ، ولحناً غريباً يعزفه القيثارة ، وخشخشة
حلي ، ووسوسة خلاخيل ، ورنين أجراس تعد الزمن ،
واصطفاق البلور في علائق الثريات ، وتغريد البلابل
من أقفاص في الدهاليز ، ولقطة اللقائ في الحداثق .
تخلقت أصواتها حولي موسيقى غير أرضية

ثم أدى بي الأمر إلى الاعتقاد بأن هذه الرؤى
التي لا تمس ولا تبلغها يد ولا تنتسب لأرض إنما هي
الحقيقة الفريدة في هذا العالم ، وليس ما عداها إلا
حلماء . فلقد كنت أذكر أن اسمي سرجوت بن طيب
الذكر فلان ، وأني أتقاضى مرتباً قدره أربعمائة
وخمسون جنيهاً ، جزاء وظيفة جامع لضرائب القطن ،
وأني أركب كل يوم إلى مقر عملي في عربة صغيرة ،
وسترة قصيرة ، وقبعة عريضة ، فلا أرى كل ذلك
إلا وهماً عجيباً يبعث على السخرية ، فأنفجر ضاحكاً
في صوت أجش ، وأنا واقف وسط البهو الظلم
وفي تلك اللحظة يدخل خادى وييده
مصباح مضاء من الكيوسين . ولست أدري إن
كان يحسبني مجنوناً ، ولكني كنت أفي إلى عقلي
وأثوب إلى رشادي ، فأومن أنني حقاً سرجوت بن
طيب الذكر فلان ، ومهما قال الشعراء إن على الأرض
أو خارجها أصقاعاً تنبجس فيها نافورات لا تبصرها
العين ، وتعرى أصابع غير مرئية على أوتار لا تسمعها
الأذن ، مهما قالوا فأنا ولا ريب أجمع ضرائب القطن

فأختلس النظر مرتعداً . ولكن الجمع ظل خفياً
عن عيني ، يشمله الظلام فلا أراه . ثم هبت عصفه
ريح فاجئة فأزاحت كابوس الليل ، وجمدت صفحة
النهر ، فتلوى كشعر حورية . وانبعثت من الغابة
المظلمة همهمة فكأنها أفاقت من حلم أسحرم ...

فليكن ما رأيت حقيقة ، أو فليكن حلماء ، أو
فليكن سراياً التمع من وراء مائتين وخمسين عاماً ،
ثم خبا في مثل ومضة البرق ، أو لمحة البصر . ولكن
هاتيك الكائنات السحرية التي ادلت من حولي ،
تخطو بلا جسد ، وتضحك بلا صوت ، ثم ألقت
بنفسها في النهر لم تعتصر أثوابها النضاجة بالماء
عند ما همت بذهوب . بل حملها الريح على أجنحته ،
كأنها عبير الزهر طوخت به أنفاس الربيع . فأفعمني
خوف محجب ، وخشيت أن تكون عروس الشعر
قد عابثني ، فرأت وحدتي ، فاحتوتني ... وكأنما
أنتني الساحرة لتحطم في شيطاناً فقيراً يتعيش من
جمع ضرائب القطن ! فاعتزمت أن أهني لنفسي
عشاء طيباً ، فالعمدة الفارغة موطن كل داء عياء .
فبعثت في طلب الطاهي ، فأمرته بأعداد عشاء فاخر .
وفي اليوم التالي بدا لي الأمر كله خيالاً عجيباً
فتقبعت فرحاً وركبت إلى عملي . وكان على أن
أكتب تقريرى ذلك اليوم ، فتأهبت لعود متأخر .
فلما أدت الشمس بالنفيس إذا بي أجد نفسي مسوقاً
إلى البيت لعله لا أدريها . وإنما كنت أشعر «أهم»
جميعاً في انتظاري ، فلا يليق أن أتأخر أكثر مما
تأخرت . فقامت والتقرير لم يتم ، ثم تقبعت وشرعت
أطوى الطريق الكتيب بعربي حتى شارفت القصر
الواسع المنزول ، الرابض في سفوح الهضاب

وكان سلم الطابق الأول يؤدي إلى بهو فسيح
شيد سقفه على ثلاث أقواس متقوسه ، يحملها ثلاثة
صفوف من أعمدة ضخمة ، والسقف متصل أتيه ،
رازح تحت ثقل وحدته . وكان النهار قد آذن بزوال

على من دنيا الخيال ، كأنها نفحة العطر يحملها نسيم
الريبع . وكأنما كنت أسير في دروب بغداد النائمة
والليل مظلم بهيم ، ميمما شطر مجتمع يحف به الزرايا .
وأخيراً توقفت قائدتى الحسنة قبالة ستر أزرق
عميق الزرقة ، ثم كأني بها أشارت إلى شيء أسفله .
وما كان هناك من أحد ، ولكن جمد الدم في قلبي
من فزع ورهبة ، فقد خيل إلى أنني أبصرت على
الأرض بين طيات الستر عبداً خصباً ، لابساً حلة
من حرير مشجر ، وساقاه ممدودتان قدماه ،
والسيف مسلول على نغذه . فشت صاحبتي تسترق
الخطي ، ورفعت من الستر ركناً ، فلمحت غرفة
فرشت بأبسطة فارسية ، فيها سرير توسدته غادة
لم أر منها إلا قدمين بديعتي التكوين ، في كوث
مذهب عجيب الصنعة ، تطلان من منامة سابغة
فضفاضة زعفرانية اللون ، وتستريحان على بساط من
نخل برتقالي الصبغ ، وإلى جانبها طبق بلوري يتأهب
لاستقبال زائر قريب ، بما فيه من تفاح وبرتقال
وعنب وكثيرى وسكرية مذهبة ، وهفوف حوالى
شذا بخور عطر فكان يقبب عقلي ، ويرين على حواسي
وتقدمت والقلب واجف والطرف طارف لا تخطئ
أقدام الخصي ، فهب مذعوراً فسقط السيف من على
نغذه فرن على رخام الأرض . فصرخت مرتبها فإذا
أنا قاعد على الفراش أتصيب عرقاً ، والهلل يبدو
شاحباً ، وقد كسفه ضوء النهار ، كليل أشرف
عليه الفجر ، ولم يهجع منه الطرف ولا نام . وماهر
على المتوه يصيح صيحة كل صباح : « مكانك !
مكانك : إنك لنى ضلال ! إنك لنى ضلال ! »
ويطوى بقدميه وحشة الطريق .

وكذاك ولى حلم ليلة ، ولكن بقى ألف حلم ،
وتنافرت أبيي وليالي ، ففى الصباح كنت أذهب
إلى عملى منهوكا مكدوداً ، لاعتناً سحر الليل وبرقه
الخلب ، فإذا أبفل المساء خلعت بردة النهار ،

من سوق باريش ، وتدر على مهنتى أربعائة وخمسين
جنهماً في العام . ثم أضحك مما كنت أسبح فيه من
وهم وضلال ، وأجلس إلى منشدتى الصغيرة فأقرأ
الصحف على ضوء مصباح الكيروسين ، ثم أفرغ
من صحيفتي ، وأتم عشائي ، وآتئ إلى مضجعي في
غرفة صغيرة جانبية ، وأنظر من النافذة فإذا نجمة وضيفة
تطالعني من فوق تلال (آفلى) ، تحرق من ملايين
الأميال إلى السيد الجامع ، راوداً في فراشه الصغير
المشواضع ... وأفكر في ذلك وأطيل التفكير ، فيملأني
التفكير سرورا ، فلا أدري كيف أغفلت عيني وراى
النوم على جفوني ، بل أهب فأقعد متفزراً ، ولكنى
لا أسمع صوتاً ولا أرى أحداً ، لا شيء إلا أن النجم
خبا ، وضوء القمر الباك يرسال من النافذة المفتوحة
كأنه خجلان من اندفاعه . خزيان لتطفله ...

لم أبصر أحداً ولكنى أحسست كأن يداً رفيعة
تدفعني ، فلما صحت لم تنبس بكلمة ، بل أومات
إلى بأصابها الخمس انحلاة بالخواتم أن اتبعني واحذر
والثند . فانهضت لا أحدث صوتاً ، ولم يكن في القصر
سواي ، فكنت فريداً في أجنحته العتيدة ، نجماً
لأصواته النائمة ، وأصدائه الحاملة . ولكنى كنت
أخشى مع كل خطوة أن أوقظ أحداً . وكانت أغلب
غرف القصر على الدوام مغلقة لا أطرقها أبداً .
فاكتنمت أنفاسي ، وتبعت قائدتى التي لا أراها ،
لا أدري الآن إلى أين ... ! الله ما أحلك الظلام ،
وما أطول الطريق ، وما أبعد المدى ... ! ولكم
جرت من حجرات عليها مسحة الجلال ، ومردت
برازين فيها خشوع الرهبة ، واتخذت من الظلام
جلايب سودا : لم أك أرى دليلتي الفاتنة ، ولكنى
أبصرتها بعين خيالي ، عربية عذراء لها ذراعان قويتان
لاعتان كالمرمر ، تبدوان من بين طيات كمها الفضفاض
وقد طربت على وجهها خمراً رقيقاً ، وتمنطقت خنجراً
ملوياً . نفيل إلى أن ليلة من ألف ليلة قد أقبلت

وتقنعت بقلنسوة من مخمل أحمر ، وارتديت منامة فضفاضة وصداراً موشى ، وقفطاناً سابغاً هفهاً . فإذا أخذت زينتى جلست على كرسى وانكأَت على حشايا ، واستبدلت بلفائف التبغ « نارجيلة » ملوأة ملؤها ماء الورد . فكأننى أتأهب لاستقبال عشيقه موموقة ، وإن البيان يقصر عن وصف ما تكشفته لى عنه ظلمة الليل من عجائب وخوارق

وبين موج الحلم الجميل ، وشذا الزهر العاطر ، ورنين القيثارة المطرب ، وهفهفه النسيم المعرف ، كان الطرف يسبح فيلمح غادة وضاءة ، هى تلك التى رأيتها قبل فى منامة زعفرانية اللون ، وأبصرت منها قدمين يضاوون ناعمتين ، فى كوث موشى بالذهب ، مَلَوَى مقدمه ؛ وكانت تتمنطق بنطاق من ذهب ، وتتبع بقلنسوة حمراء تنوس حافها على خد فى بياض السوسن ، وجبين فى صفاء التاج . ولقد والله أخذت بلى . فكنت أطاردها من حجرة إلى حجرة ، وأتأثرها من ردهة إلى ردهة ، وأتقفاها من بهو إلى بهو ، فى منعطفات خلقها الخيال ، ومنعرجات أوغلت فى ابتداعها الأحلام ، فكأننى أهيى فى الأرض السفلى ، أو أضرب فى طرقات الجحيم ! فأحس فى أريج الجوقيلات هائجة ، وبسات حائمة ، ورنوات حالة ، وتديلا وعناقاً ، وقلبا خفاقاً ، وهمساً فى الأذن ! ثم تطوق جسدى أفنى عجيبة وتلف حورياتها حولى ، فأفقد الحس وأروح فى نوم عميق وذات مساء أزمعت الخروج على صهوة جوادى ولم أصغ لتوسل أو رجاء ، ولكن أى توسل ؟ وأى رجاء ؟ وكانت على الشجب قبعتى وسترتى ، فيبنا أنا موشك أن أنزعهما هب إعصار فاجئ . مخمل برمال السوستا ، وهشيم الأوراق الدابلة الساقطة على تلال آفالى ، فأطاحهما ودار بهما دورات عديدة فجلبجت فتحمة مرحلة مُمرَّنة ، تعالت وارتفعت

فياضه بالحبور والسعادة ، ثم تلاشت على تخوم الغروب : فلم يعد عن البقاء محيص ولا متحول . وفى اليوم التالى أقيت - قانطاً - بقبعتى وسترتى فلما أدبر النهار ونشر الكون ذوائبه الطاخية ، سمعت فى هدأة الليل ولولة مكتومة تشق المرائر ، وكأنها صادرة من تحت الفراش ، من تحت أرض الحجر ، من تحت أحجار ذلك القصر العظيم ، من أعماق هوة دامية . من أغوار حدث أسحيم ! وسمعت صوتاً يستغيث : « أوأه ! أنقذنى ! تحط أبواب الوهم ، وجز طرقات النوم العميق ، والحلم العقيم ! خذنى إلى جانبك على صهوة جوادك ، ثم ضمنى إلى قلبك ، وطرزنى فوق الرنى والحزون ، واطو الغاب والنهر ، وجز رجلم البيد ! خذنى إلى علاك المضي ، وشمسك الصاحية ، وهوائك الطالق » ونجاة فى تلك اللحظة صاح ماهر على المنجون : « مكانك ! مكانك ! إنك لى ضلال ! إنك لى ضلال ! » ! ففتحت عيني على ضوء يفيض فيغمرنى ، وإذا بخادى قد أقبل بخطاباتى ، والطاغي ينتظر أوامرى ! فقلت : « كلا ! لن أبقي هنا بعد الآن » وحرمت فى ذلك اليوم حقائبي ، ونحوأت إلى مقر عملى ، فابتسم كريم خان ابتسامة طفيفة ، فاحتمت غيظاً ولكنى لم أنبس بكلمة ، وأمهكت فى العمل ؛ فلما أقبل الليل شت منى الفكر وشعرت كأننى كنت ضربت موعداً لأبد أن أوفيه ، وبدت لى مراجعة ضرائب القطن شيئاً تأفها لا غناء فيه ، ثم خلت الحاضر وهما ، والسعى فى سبيل العيش ضلالاً وجرباً وراء عرض تأفه . فألقيت القلم وطوبت التدفتر ، وركبت عربتى الصغيرة . ولاحتلت أنها توقفت من تلقاء نفسها أمام بوابة القصر الرخامى ، وكان الشفق يكلل جبين الأرض ، فحشمت الخطى صاعداً الدرج ثم داخلها الحجر . وكان يرين عليها

لم يبقه عن الهوى جنونه ، فصار يأتي كل صباح ويحوم حوله مفتوناً بسحر المارد الرمرى ، فاندفعت إليه لأبالي بالزوبعة الثائرة والمطر النهمل ، ولم يجب الرجل ، بل نحاني عن طريقه ، وظل يحوم صائحاً صيحته المجنونة ، فكانه طائر يرفرف مسجوراً حول أنياب ثعبان ، فعدوت إلى مكتبي وسط المطر النهمر ، فكانني مجنون ذاهب العقل مسلوب الرشاد . وسألت كريم خان : « خبرني ما معنى كل هذا ؟ » فقال : إن جدران هذا القصر ضمت عواطف كبتت ، ونزوات كتمت ، وشعلا من اللذة تارت والتهبت ؛ فتصاعدت منه دعوات ولعنات من قلوب مكومة ، وآمال محطمة ، فصيرت كل حجر منه جوعان ظمآن ، فكانه غول جائع يتبلع كل من يدنو منه . فلم يستطع إلا فلات من أنياب هذا القصر كل من أقام فيه ثلاث ليال متتابعة ، إلا ماهر على الذي دفع عقله ثمناً لنجاته فسألت : « أما من خلاص ؟ » فأجاب الرجل المعجوز : « هناك طريق واحد فحسب ، ولكنني سأسمعك صعب وعمر ، وسأرشدك إليه ، ولكنني سأسمعك قبلاً قصة عذراء فارسية عاشت في ذلك القصر الفخيم ، وإني لقصة لم تعرف الأرض أخفم منها » وفي تلك اللحظة تناقل السافرة أن القطار قد أقبل . هكذا سريما ؟ وطفقنا نرتب أمتعتنا عجولين . وبينما كان القطار يفر زفيره وهو داخل المحطة ، رأينا رجلاً أجنبيّاً يطل من نافذة في الدرجة الأولى ويحاول أن يقرأ اسم المحطة . وما كاد يلمح صاحبنا حتى ناداه وحياء وأخذه في رفقته . وكانت تذاكرنا للدرجة الثانية ، فلم نعرف الرجل ولا خاتمة قصته . فقلت : « من الواضح أن الرجل ظن فينا البلاهة والسذاجة فآخذنا هزأة وملهاة ، فالقصة خيال من مبدئها إلى منتهاها »

سُكْرَى مُحَمَّد عباد

صمت عميق ، وقد ساد الظلام غرف القصر فبدت غاضبة معرضة . وامتلاً قلبي ندماً ولكني لم أر أحداً أفضى إليه بسر فؤادي ، أو أسأله المغفر والمغفرة ؛ فجلست في ظلمة القصر موزع الفكر مشئت الدهن ووددت لو كان لي قيثار فأضرب على أوتاره ، وأزجي منه الألحان إلى غادق المجهولة : « أيتها النار ! إن الفراشة الضالة التي أرادت لتبتعد عنك قد عادت لتري بهاءك ، فأغفرى فإنما هي مرة واحدة ، والهبي جناحيها يجذونك : » وغطاء سقطت دمعتان فأحدرتا على جبينى ، وحلقت على تلال آفالى سحب سوداء ، والأحراج الكثيفة تنتظر ، ومياه السوسنا القائمة تترقب في قلق وسكون خفيف . ثم مادت الأرض ، ومار الماء واهتزت السماء ، وهبت في النابة المهجورة عاصفة ثائرة ، ففرقت أبواب القصر

وكان الخدم كلهم في مكتب عملي ، فلم يبق منهم أحد فيضي المصاييح ، وكانت السحب منعقدة والقمر ممتحفاً ، فأحسست في الظلام الدامس امرأة منبطحة على وجهها فوق سجادة تحت الفراش ، تشد بأصابع يائسة شعرها الطويل المتناثر ، وقد تسائل الدم على جبينها الوضاء ؛ وهي آتات تضحك ضحكات قاسية ، وآونة تصرخ صرخات مدوية

ولم تنقطع الريح طوال الليل ولا خمدت تلك الصيحة الأليمة ، فطفقت أهييم في الظلام من حجرة إلى حجرة ، وقد سمر الهم قلبي ، وأظلم الحزن نفسي ... من أواصي ولا أحد يجنبي ؟ ومن هي تلك التي جن جنونها من عذاب وألم ؟ ومنذ متى جثم على قلبها ذلك الحزن المقيم ؟

وصاح الرجل المعتوه : « مكانك ! مكانك ! إنك لي ضلال ! إنك لي ضلال ! » فإذا النور قد انبثق ، والفجر قد بزغ ، وماهر على يطوف بالقصر يصيح صيحة في ذلك الطقس اللعين ، وخطر لي أنه ربما كان قد عاش في ذلك القصر أيضاً ، ثم